

كلام له علاقة بالكتاب

نزلت السيدة العذراء، حاملةً يسوع بين ذراعيها، إلى الأرض لزيارة دير. وقف الرهبان، شديدي الفخر، صفا لتكريمها. ألقى أحدهم قصائد، أخرج لها آخر كتابا مقدسا مزخرفا، وعدد آخر أمامها أسماء القديسين.

فى آخر الصف وقف راهب متواضع لم تتح له فرصة الدراسة مع حكماء زمانه، كان أبواه من البسطاء العاملين فى السيرك. عندما وصل دوره أراد الآخرون إنهاء مظاهر التكريم خوفا من الإساءة إلى صورة الدير، لكنه أراد هو أيضا إظهار حبه للعذراء، فأخرج من جيبه، محرجا، وشاعرا بنظرة إخوته المستهجنة، بضع برتقالات وأخذ يرمى بها فى الجو ويلتقطها مثلما علمه أبواه.

عندها فقط ضحك يسوع، وصفق بيديه فرحا، مدت العذراء يديها إلى ذلك الراهب وعهدت إليه بطفلها لبعض الوقت.

باولو كويلهو

من كتاب «مكتوب»

كلام لا بد منه

منذ سنوات طويلة وأنا زبون (سُقّع) لسيارات التاكسى ، درت معها فى شوارع وأزقة القاهرة، بحيث أصبحت أعرف حواريتها ومطباتها أكثر من أى سائق . (بعض الغرور لا يفسد للود قضية) .

وأنا من هواة الحديث إلى سائقى التاكسى فهم بحق أحد ترمومترات الشارع المصرى (الصايغ) ، يضم هذا الكتاب بين دفتيه بعض القصص التى عشتها وبعض الحكايات التى جرت مع سائقين من إبريل ٢٠٠٥ إلى مارس ٢٠٠٦ .

أقول إن الكتاب يضم بعض القصص وليس كلها ، والسبب أن أصدقاء من المحامين قالوا لى إن نشرها كفىل بزجى فى السجن بتهمة القذف والسب ، وإن تسجيل أسماء بعينها فى نكت أو قصص محددة تملأ الأسماع والأبصار فى الشارع المصرى أمر خطير . . خطير يا ولدى . وهو أمر أحزننى لأن القصص الشعبية والنكت المصرية سوف تضيع دون تسجيل .

حاولت أن أنقل هذه القصص كما هى بلغة الشارع ، وهى لغة

خاصة وفجة وحية وصادقة تختلف تماما عن لغة الصالونات والندوات التي اعتدنا عليها .

ودورى هنا ليس بالتأكيد مراجعة دقة ما قمت بتسجيله وكتابه من معلومات ، فالمهم هنا هو ما يقوله فرد فى المجتمع فى لحظة تاريخية بعينها حول موضوع محدد ، فالسوسيولوجى يفوق المعرفى فى مرتبة أولويات هذا الكتاب .

وسائقو التاكسى يتمون فى معظمهم لشريحة اجتماعية مطحونة اقتصاديا . يعملون فى مهنة مرهقة جدا بدنياً ، فوضع الجلوس الدائم فى سيارات متهاكة يدمر أعمدتهم الفقرية ، وحالة الصراخ الدائم الموجودة فى شوارع القاهرة تدمر أجهزتهم العصبية ، وحالة الزحام المستمرة تنهكهم نفسيا ، والجرى وراء الرزق - بالمعنى الحرفى للجرى - يشد صفائر الكهرباء فى أجسادهم للمنتهى ، يضاف إلى كل ذلك حالة الشد والجذب الدائمة بينهم وبين الزبائن لعدم وجود أى معايير للحساب ، وبينهم وبين الشرطة التى تمارس ضدهم فى العموم ما يجعل المغفور له «الماركيز دو ساد»^(١) يرتاح فى تربته .

أضف إلى ذلك أن مردود التاكسى لو تم حسابه بشكل علمى ، أى واضعين فى الاعتبار كافة العناصر من إهلاك للسيارة وأجرة

(١) الماركيز دو ساد : ١٧٤٠ - ١٨١٤ ، كاتب فرنسى ، تناول فى كتاباته موضوع السعادة الحسية وارتباطها بالتعذيب الجسدى ، وقد اشتقت كلمة السادية من اسمه .

السائق والضرائب وقيمة التجديد والمخالفات . . إلخ سيجد أنه مشروع خاسر مائة بالمائة . وأصحابه يتصورون أن التاكسى يربح لأنهم لا يضعون فى الحسبان العديد من المصروفات غير المنظورة ، ونتيجة لذلك فحالة سيارات التاكسى متهاكة وبأئسة وقذرة ، وسائقوها يعملون عليها كالرقيق .

وقد أدى عدد من القرارات إلى زيادة الإقبال على مشروع التاكسى بشكل غير مسبوق . حتى وصل عدد سيارات الأجرة فى القاهرة الكبرى إلى ثمانين ألفا ، وأهم هذه القرارات ، القرار الذى تم اتخاذه فى النصف الثانى من التسعينيات بالسماح لأى سيارة قديمة بأن تتحول إلى تاكسى . والقرار الثانى بدخول البنوك فى تمويل السيارات ومن ضمنها سيارات الأجرة . وهكذا انضم عدد كبير من العاطلين إلى طائفة سائقى التاكسى ، ودخلوا فى دورة عذاب حقيقية لسداد الأقساط البنكية . وتحول جهد أولئك المعذبين إلى مزيد من الأرباح للبنوك ولشركات السيارات ومستوردي قطع الغيار .

وفى المحصلة العامة ستجد الآن سائقى تاكسى من كل التخصصات ومن كافة الشرائح العلمية ، بدءاً من الأمى إلى الحاصل على الماجستير لأننى لم أقابل حتى الآن سائقى تاكسى حاصلين على (الدكتوراه) .

ولدى أولئك السائقين خبرات واسعة بالمجتمع ، حيث إنهم يعيشون عمليا فى الشارع ، ويلتقون بمزيج هائل من البشر بشكل

يومي، وتتجمع لديهم من خلال الحوارات التي يقيمونها وجهات نظر معبرة جداً عن شريحة (الغلاية) في المجتمع المصري.

والحق يقال . . فإننى كثيراً ما أرى فى التحليل السياسى لبعض السائقين عمقاً أكثر مما أجده لدى العديد من محللين سياسيين يملئون الدنيا صحباً . فحضارة هذا الشعب تتجلى فى بسطائه . فهذا الشعب المصرى العظيم الرائع مُعلم بحق لكل من يريد أن يتعلم .

خالد الخميسى

٢١ مارس ٢٠٠٦

(١)

يا إلهى! . . كم عمر هذا السائق؟ وكم عمر هذه السيارة؟ لم أصدق عينى عندما جلست بجانبه . . فإن عدد الكرمشات فى وجهه بعدد نجوم السماء . تضغط كل كرمشة على الأخرى بـ (حنية)، وتصنع وجهها مصرىاً نحتة «مختار»^(١) . أما يدها اللتان تضغطان على المقود فإنهما تتمددان وتنكمشان عبر شرايينها البارزة وكأن شرايين النيل تغذى الأرض اليابسة، مع رعشة خفيفة لا تحرك المقود يمينا أو يسارا، فالسيارة تسير ثابتة إلى الأمام، وتصدر من عينيه المغطتين بجفنين عملاقين حالة سلام داخلية تبعث فى وفى الدنيا الطمأنينة .

شعرت - بمجرد الجلوس إلى جانبه بفعل مجال مغناطيسى يصدره - أن الحياة بخير . وتذكرت لسبب مجهول شاعرى البلجيكى المفضل «جاك بريل»^(٢)، وكم كان مخطئا عندما كتب قصيدة شهيرة وغناها تقول : «ما أحلى الموت مقارنة بالشيخوخة،

(١) محمود مختار : ١٠ مايو ١٨٩١ - ٢٧ مارس ١٩٣٤، مثال مصرى .

(٢) جاك بريل : ٨ إبريل ١٩٢٩ - ٩ أكتوبر ١٩٧٨ شاعر ومطرب بلجيكى .

وأن الموت بأية طريقة أفضل بكثير من الكبر». لو جلس بريل بجانب هذا الرجل كما أفعل الآن لمسح قصيدته بـ (أستيكّة).

أنا : حضرتك أكيد بتسوق من فترة طويلة .

السائق : أنا باسوق تاكسى من سنة ٤٨ .

لم أتصور أنه يمارس مهنة قيادة سيارات الأجرة منذ قرابة ستين عاما . لم أجرؤ على سؤاله عن سنه ، ولكنى وجدت نفسى أسأله عن النتيجة .

أنا : وإيه يا ترى خلاصة خبرتك اللى ممكن تقولها لواحد زىّ ، علشان أتعلم منها .

السائق : غلة سوداء على صخرة سوداء فى ليلة حالكة الظلمة يرزقها الله .

أنا : قصدك إيه؟

السائق : أحكيك حكاية حصلت لى الشهر ده علشان تفهم قصدى .

أنا : أرجوك

السائق : عييت لمدة ١٠ أيام عيّا شديد ، ماكنتش قادر أتحرك من السرير ، وأنا طبعاً على باب الله يعنى اليوم بيومه معايا . . بعد أسبوع ماكنتش فيه فى البيت ولا مليم . . أنا عارف و مرأتى مخبّية على . . أقول لها حنعمل إيه يا ستى؟ . . تقوللى الخير كثير يا أبو حسين وهى عمّالة تشحت أكل من كل الجيران . . وأنا

طبعاً ولادى اللى فيهم مكفّيههم ، اللى جوّز نص عياله ومش عارف يجوّز النص التانى . . واللى عنده حفيد عيّا يجرى بيه فى المستشفيات . . القصد ما ينفعش نطلب منهم حاجة . . ده الواجب إن أنا اللى أساعدهم . . بعد عشرة أيام قلت للحاجة لازم أنزل الشغل . . حلفت علىّ وقعدت تصرخ وتقول إنى لو نزلت ح أموت منها . . وبصراحة أنا ماكنتش قادر أنزل . . بس قلت لازم ، كدبت عليها كدبة بيضة وقلت لها ح أقعد فى القهوة ساعة . . أغيّرها علشان حاتخنى . . ونزلت دورت العربية وقلت يا ربنا يا رزاق . . فضلت ماشى لغاية ما وصلت عند جنية الأورمان ولقيت لك عربية بيجو ٥٠٤ عطلانة والسواق بتاعها بيشاور لى . . وقفت . . قرّب منى وقال لى معايا واحد عربى طالع المطار تاخده علشان عربيتى عطلت؟ واخذ بالك هنا من حكمة ربنا؟ معاه عربية ٥٠٤ حالتها بريمو ، وعطلت!! . . قلت له أوصله .

ركب معايا الزبون . . طلع من عُمان ، من عند السلطان قابوس^(١) سألنى تاخذ كام قلت له اللى تجيبه . . أكد علىّ . . اللى حادفحه حتاخده . . قلت له ماشى .

وأنا فى الطريق عرفت إنه رايح قرية البضائع علشان عنده حاجة حيخلصها . . فعرفّته إن حفيدى بيشتغل هناك وإنه ممكن يساعده فى تخليصها من الجمرك . . قال لى ماشى . . وبالفعل

(١) السلطان قابوس بن سعيد : ١٨ نوفمبر ١٩٤٠ ، سلطان سلطنة عمان .

رحت ولقيت حفيدي هناك وفي ورديته . . خد بالك هنا إن أنا
طبعاً كان ممكن ما ألاقيهوش . . خلصنا الحاجات اللي عاوز
يخلصها ورجعته الدقى .

سألنى تانى حتاخذ كام يا حاج؟

قلت إحنا اتفقنا، اللي تجيبه، فراح مدّينى خمسين جنيه
خدّتهم وشكرته ودوّرت العربية . . سألنى راضى، ردّيت وقلت
له راضى .

قال لى بّص يا حاج . . الجمر ك كان المفروض يبقى بـ ١٤٠٠
جنيه دفعت أنا ٦٠٠ جنيه . يعنى الفرق ٨٠٠ جنيه دول طالعين
من ذمتى، يعنى حلالك و ٢٠٠ جنيه أجرة التاكسى . . أدّى ألف
جنيه والخمسين اللي معاك هدية منّى !

شفت يا أستاذ . . يعنى مشوار واحد جاب لى ألف جنيه،
ممكن أشتغل شهر وماجيبهوش . . شوف ربنا نزلنى من بيتى
وعطّل العربية الـ ٥٠٤ وأوجد لى كل المسببات علشان يرزقنى
الرزق ده . . أصل الرزق ده مش بتاعك والفلوس دى مش
بتاعتك، كله بتاع ربنا . . دى الحاجة الوحيدة اللي اتعلمتها فى
حياتى .

نزلت من التاكسى أسفا فقد كُنت أتمنى لو جلست معه ساعات
وساعات أخرى، ولكن للأسف كان لدىّ أنا أيضاً موعد فى
سلسلة الجرى المستمر وراء الرزق .

(٢)

ركبت مع سائق تاكسى من شارع جامعة الدول العربية أمام
سور نادى الزمالك، وكان وجهه فى حالة احتقان وكأنه على
وشك الانفجار . . شعّرت حقيقة وكأن شرايينه يسكنها حنش
يتمدد ويتقلص من فرط الغضب، أو أنه سيصاب بجلطة دماغية
فوراً . .

أنا : ولا يهمك كله بيعدى .

السائق : أفندم . . فيه حاجة يا أستاذ؟

أنا : شكلك بيقول إنك متضايق، قلت أقولك ولا يهمك .

السائق : أنا مش متضايق . . أنا ح أموت .

أنا : فيه إيه بس . . مفيش حاجة فى الدنيا تستاهل .

السائق : لا فيه، طالع ميتين أمى علشان أأكل العيال ييجى
واحد ابن قحبة ياخذهم منى . . وتقوللى يستاهل وما
يستاهلش . . آه يستاهل ما أنا طافح الكوتة مش زى سعادتك على
قلبك مراوح .

أنا : إيه يا عم ده؟ إنت حتطلع زعلك علىّ . . إيه بس اللى حصل؟

السائق : ركب معايا واحد من مدينة نصر وقاللى المهندسين ، قلت له اتفضل . . السكة زحمة والكوبرى كان واقف خالص . . قلت مش حيقدرّ ، لكن مش مشكلة أنا اللى ما اتفقتش معاه . . جينا نزلنا كورنيش العجوزة ، قاللى ادخل على ميدان سفنكس دخلت ، قاللى لف من أول لفة واركن هنا بعد عمر أفندى . . علشان حنعمل كمين هنا .

كمين !! قلت فى نفسى يا نهار أسود . . المهم طلع أمين شرطة لابس مدنى . . طبعاً مش حيدفع حاجة ، وقفت أنا من هنا لقيته بيقول لى رخصك يا بن الكلب . . قلت له : ليه بس يا باشا؟ أنا ما عملتش حاجة ، قال لى : رخصك . . طلّعت خمسة جنيه . . قال لى ما ينفعوش ، طلّعت عشرة جنيه ، قال ما ينفعوش ، المهم خد عشرين جنيه . . ونزل ابن القحبة . . والله ولا لك علىّ حلفان ، دول كل اللى كنت اشتغلت بيهم النهاردة بعد ما حطّيت البنزين . . أنا كان هاين علىّ أطبق فى زمارة رقبته ، لكن فكّرت فى عيالى وفى الولية مراتى .

بس أنا حمار عشان أنا دلوقتى ح أموت من الغل . . كنت قتلته وآهى موتة بموتة . .

أنا : هى البلطجة كدة عيني عينك .

السائق : البلطجة على ودنه . . مفيش واحد فى ولاد القحبة دول إلا مرتشى وحرامى (نصحنى البعض أن أكتب «معظمهم مرتشين» ، وليس ما قاله السائق «كلهم مرتشين» ، لكنى لم آخذ بالنصيحة لأن حالته لم تكن تسمح على الإطلاق بالتعقل وعدم استخدام صيغة المبالغة) ، الله يخرب بيت أبوهم زى ما بيخربوا بيتنا يوماتى .

من أهم الموضوعات المحببة لدى سائقى التاكسى فى القاهرة شتم وزارة الداخلية ، واحترامها وتبجيلها وتوقيرها فى نفس الوقت ، فهما - السائقون وإدارة المرور فى الداخلية - الموجودان دائماً فى الشارع . . والقصص فى هذا المجال كثيرة ولكن تلك القصة صفعتنى على وجهى بعنف .

وقد سمعت كثيراً أدعية على رجال البوليس فى قاهرته الساحرة ، ولكنى لم أكن أبداً متعاطفاً بقدر تعاطفى مع هذا المسكين ضحية هذا الأمين .

«أمين الشرطة» الذى كان حلماً جميلاً فى أوائل السبعينيات . . أمينا على الشوارع فى بدلته الجميلة ، يسير بها متأنقا ، ويا أرض انهدى ما عليكى قدّى ، ومَن منّا لا يتذكر

كلمات صلاح جاهين^(١) فى فيلم «خللى بالك من زوزو»^(٢)
وهو يقارن أمين الشرطة «اسم الله» بالدبلوماسى .

كيف تحول هذا الحلم إلى كابوس على قلب الشارع المصرى
خلال الثلاثين عاما الأخيرة؟

(٣)

من ضمن النتائج الاجتماعية المباشرة لحركة «كفاية»^(١) على
الشارع المصرى ، أنها رفعت البنديرة فى أيام المظاهرات .

بالطبع أقصد بكلمة البنديرة الأجرة ، فالبنديرة موجودة كأداة
تجميلية فقط تُزين السيارة وتمزق بنطلونات الزبائن الذين يجلسون
بجانب السائق .

فى ذلك اليوم كنت فى شارع نادى الصيد بالدقى ذاهبا إلى
وسط البلد واقفا أبحث عن تاكسى . . وكلما شاورت إلى أحدهم
وهتفت صائحا : وسط البلد . يشيح السائق بيده ويكمل سيره . .
وهذا أمر غريب . . أرجعنى إلى أيام الثمانينيات الكريهة عندما
كان العثور على كنز على بابا أسهل بكثير من ركوب تاكسى . .
ويكفى الرجوع لكاريكاتير تلك الأيام لتدرك معاناة زبائن التاكسى
من أمثالى مع الفوطة الصفراء حول العنق . . أيام الله لا
يرجعها . الآن تقف أقل من دقيقة لتركب سيارة تاكسى جميلة

(١) صلاح جاهين : ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠ - ٢١ إبريل ١٩٨٦ ، شاعر ورسام
مصرى .

(٢) خللى بالك من زوزو : فيلم مصرى من إخراج حسن الإمام ، ومن إنتاج
١٩٧٢ .

(١) حركة كفاية (الحركة المصرية من أجل التغيير) : هى تجمع لمجموعة من المثقفين
معارض للرئيس مبارك ، تشكلت فى صيف ٢٠٠٤ .

Mon Dieu ! Quel âge pouvait avoir ce chauffeur de taxi ? Et quel âge pouvait avoir sa voiture ? Je n'en croyais pas mes yeux quand je me suis assis à côté de lui. Il y avait autant de rides sur son visage que d'étoiles dans le ciel. Chacune poussait l'autre tendrement, créant un visage typiquement égyptien qui paraissait sculpté par Mahmoud Mokhtar. Quant à ses mains, qui tenaient le volant, elles s'étiraient et se rétractaient, irriguées par des artères saillantes comme le Nil allant abreuver la terre desséchée. Le léger tremblement de ses mains ne faisait basculer la voiture ni à gauche ni à droite. Elle marchait droit en avant, et les yeux du chauffeur, recouverts de deux énormes paupières, laissaient transparaître un état de paix intérieure qui suscitait en moi et dans le monde entier une profonde quiétude.

Rien qu'en m'asseyant à côté de lui, je me suis senti envahi par des ondes magnétiques positives et la vie m'est apparue belle. Je me suis rappelé sans raison un de mes poètes préférés, Jacques Brel, et à quel point il avait tort en écrivant sa célèbre chanson :

*Mourir cela n'est rien,
Mourir la belle affaire,
Mais vieillir... ô vieillir !*

Si Brel s'était assis un jour à côté de cet homme, nul doute qu'il aurait pris sa gomme pour effacer frénétiquement les mots de son poème.

— Vous devez conduire depuis longtemps, monsieur, lui ai-je dit.

— Je suis taxi depuis 1948, m'a-t-il répondu.

J'avais du mal à imaginer qu'il conduisait un taxi depuis près de soixante ans. Je n'ai pas osé lui demander son âge mais je n'ai pu m'empêcher de l'interroger à propos de son expérience :

— Pourriez-vous me dire quelle leçon vous avez tirée de votre expérience, afin que je puisse en profiter ?

— Même la fourmi noire sur un rocher noir dans une nuit ténébreuse reçoit sa part de bonté divine.

— Que voulez-vous dire ?

— Je vais vous raconter une histoire qui m'est arrivée ce mois-ci et vous comprendrez mieux où je veux en venir.

— Volontiers.

— J'ai été très malade pendant dix jours. J'étais incapable de quitter mon lit. Bien entendu, je vis au jour le jour, donc au bout d'une semaine il n'y avait plus un sou à la maison. Je m'en rendais compte même si ma femme me le cachait. Je lui ai dit : "Que va-t-on faire, ma chère ?" Elle m'a répondu : "Tout va bien, Abou Hussein", alors qu'elle quémandait de la nourriture à tous les voisins. Et mes enfants, ils ont déjà assez de soucis. Certains ont déjà marié la moitié de leurs enfants mais n'ont pas de quoi marier les autres. Et l'un de mes enfants a un petit-fils malade avec qui il court d'hôpital en hôpital. Bref, je peux difficilement leur demander quelque chose, ça serait plutôt à moi de les aider.

Au bout de dix jours, j'ai dit à ma femme que je devais aller travailler. Elle m'a supplié et a crié que, si je sortais, elle allait me perdre. Et franchement je n'avais pas la force de sortir mais je me suis dit qu'il le fallait quand même. Je lui ai dit un petit mensonge pieux : que j'étouffais et que j'allais m'asseoir au café pendant une heure, pour prendre un peu l'air. Je suis descendu, j'ai pris la voiture et m'en suis remis à Dieu. J'ai roulé et, au jardin d'Orman, je suis tombé sur un taxi en panne. Le chauffeur m'a fait signe et je me suis arrêté. Il s'est approché de moi, m'a dit qu'il avait un client du Golfe qui devait aller à l'aéroport et m'a demandé de l'amener à sa place. Vous voyez la main de Dieu ! Il avait une Peugeot 504 en parfait état et il était tombé en panne ! J'ai accepté de prendre son client.

L'homme est monté dans ma voiture. Il venait d'Oman, de chez le sultan Qabouss. Il m'a demandé combien je prendrais. Je lui ai répondu que c'était à lui de décider. Il m'a redemandé : "Vous allez accepter ce que je vous paierai ?" J'ai confirmé.

Sur la route, j'ai appris qu'il allait au fret parce qu'il avait quelque chose à terminer là-bas. Je lui ai dit que j'avais un petit-fils qui y travaillait et qui pourrait peut-être l'aider à faciliter les procédures de douane. Il était partant. Quand on est arrivés, j'ai effectivement trouvé mon petit-fils sur place. Mais vous vous rendez compte que j'aurais pu ne pas le trouver à ce moment-là ! Nous avons terminé ce qu'il avait à faire et je l'ai raccompagné à Doqqi.

Il m'a demandé à nouveau : "Vous prendrez combien pour la course, *haji* * ?" Je lui ai

* Titre de respect qu'on adresse aux hommes âgés. Le sens littéral est "celui qui fait le pèlerinage à La Mecque". (N.d.T.)

répondu : “On s’est mis d’accord. Je prendrai ce que vous me donnerez.” Il m’a tendu 50 livres*, je l’ai remercié et ai redémarré. Il m’a demandé si j’étais satisfait, je lui ai répondu que oui.

Il m’a alors dit : “Les douanes auraient dû me coûter 1 400 livres et j’ai payé 600 livres. La différence de 800 livres est un cadeau de ma part. Vous les méritez. Et le trajet en taxi vaut 200 livres. Voici donc 1 000 livres, et les 50 livres que vous avez déjà sont un cadeau.”

Vous voyez, monsieur ? Un seul trajet m’a rapporté 1 000 livres alors que je peux travailler un mois entier sans toucher cette somme. Dieu m’a fait sortir de chez moi, a fait tomber la 504 en panne et a tout fait pour que je touche cette somme. Le pain quotidien ne t’appartient pas, et l’argent ne t’appartient pas : tout appartient à Dieu. C’est la seule leçon que j’ai apprise dans la vie.

Je suis descendu du taxi à regret. J’aurais aimé rester encore des heures avec lui, malheureusement, moi aussi je devais continuer à courir pour gagner ma vie.

* Une livre égyptienne correspond à 0,13 euro.

Je suis monté dans le taxi rue de la Ligue-Arabe, devant l'enceinte du club de Zamalek. Le visage du chauffeur était écarlate, on aurait dit qu'il allait exploser. J'avais vraiment l'impression que ses veines, tels des serpents, se gonflaient et se rétractaient sous le coup de la colère, ou qu'il allait faire une thrombose cérébrale sur-le-champ.

— Ne t'en fais pas, ça va aller, lui ai-je dit.

— Quoi ? Qu'est-ce qu'il y a, monsieur ? m'a-t-il répondu.

— Comme tu avais l'air énervé, je voulais juste essayer de te calmer.

— Je ne suis pas énervé... Je suis à bout.

— Mais qu'est-ce qu'il y a ? Il n'y a pas de raison de se mettre dans cet état.

— Si, il y en a une ! Je me tue à la tâche pour gagner de quoi nourrir mes enfants et voilà qu'un fils de pute débarque et me vole mon argent. Et toi, tu viens décréter ce qui est grave ou pas. J'ai de quoi être énervé. Je me crève à la tâche comme un esclave, pas comme vous, Excellence, vous vous la coulez douce.

— Hé ! te défoule pas sur moi ! Mais dis-moi ce qui s'est passé.

— A Nasr City, un type m'a demandé d'aller à Mohandessine*. Je lui ai dit de monter. Il y avait beaucoup de monde et un terrible embouteillage, le pont était complètement bouché. J'ai tout de suite pensé qu'il n'allait pas me payer le coût de la course. Tant pis pour moi, j'aurais dû négocier le prix avec lui dès le départ.

Finalement, on est arrivés sur le quai d'Agouza. Il m'a dit : "Passe par la place Sphinx." Je me suis engagé. Et là il m'a fait : "Prends la première à droite et gare-toi là, juste après Omar Effendi**. On va installer un checkpoint." Je me suis dit : "Un checkpoint ! Catastrophe !"

Bref, c'était un sergent de police en civil. Bien sûr, il n'allait rien me payer du tout. Et, dès que je me suis arrêté, il m'a sorti : "Ton permis, fils de chien." Je lui ai répondu : "Mais pourquoi, *pacha**** ? Je n'ai rien fait." Il m'a répété : "Ton permis !" Alors je lui ai tendu cinq livres, ça ne lui allait pas. J'ai sorti dix livres, ça ne lui allait toujours pas. Finalement, le fils de pute m'a pris vingt livres et il est descendu.

Je te jure, c'est tout ce que j'avais gagné aujourd'hui une fois l'essence payée. J'étais à deux doigts de lui sauter dessus et de l'étrangler. Mais j'ai pensé à mes enfants et à ma femme.

Je suis un âne, maintenant je vais en mourir de rancune. Il aurait mieux valu que je le tue. De toute façon, j'ai plus rien à perdre.

* Quartier huppé du Caire. (N.d.T.)

** Fameuse chaîne de grands magasins fondée au XIX^e siècle puis nationalisée après la révolution, en 1957. Omar Effendi a été à nouveau privatisé en 2006. (N.d.T.)

*** Signe de respect, en référence au mot turc. La plupart du temps, expression utilisée en direction des gens riches ou qui ont du pouvoir. (N.d.T.)

— Mais dis donc, c'est du banditisme clair et net !

— Le banditisme est partout. Il y en a pas un de ces fils de pute qui ne soit corrompu et voleur. Que Dieu les détruise, comme ils nous détruisent.

*

Les chauffeurs de taxi du Caire aiment par-dessus tout insulter le ministère de l'Intérieur, tout en louant parfois sa respectabilité. Les histoires entre les chauffeurs de taxi et les agents de la direction de la Circulation au ministère de l'Intérieur, qui sont présents en permanence dans les rues, sont innombrables mais celle-ci m'a particulièrement frappé. J'avais souvent entendu des gens maudire les agents de police de ma chère ville. Mais je n'ai jamais été autant touché que par la victime de ce policier.

Etre un "sergent de police" était un joli rêve au début des années soixante-dix. Le policier garantissait la sécurité des rues, se pavanant dans son joli costume, comme le roi du monde. Tout le monde se souvient des mots de Salah Jahine* dans le film *Prends soin de Zouzou* quand il compare l'officier de police, que Dieu le protège, à un diplomate.

Comment ce rêve s'est-il transformé en l'espace de trente ans en cauchemar enraciné dans les rues égyptiennes ?

* Le grand poète du dialecte égyptien, qui s'est fait connaître après la révolution de 1952. (N.d.T.)